تَغَيُّرُ البِيئَات والمجتمعاتِ وأَثَرُهُ في اللغةِ

م. بشير داوود سليمان

Environments and societies change and its impact on the language

Bashir Dawood Sulaiman

١- After search and investigation on the environments and societies change and its impact on the language It is clear that no link between environmental and social changes that arise on communities and linguistic construction of those communities, because the Arabic language is a live, are typified by its ability To widen, sculpture and precursor regeneration in its words

٢- If there was change to the Arabic language intellectual, cultural, political trends, its field is phonation and not installation and structure.

٣- The voices of Arab Language over the centuries almost one Unlike other languages

٤- And what happened of change did not lose anything from its staidness and firmness but increased their staidness and firmness by virtue of the Holy Quran to be revealed on this great language

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـــة :

بما أنَّ اللغة وسيلة تعبير عمّا يريده الإنسان سواءً كان هــذا التعبيــر بالصــوت، أم بالإشارة، أم بالإيحاء ، فأنَّ هذه اللغة تمثل نظاماً اجتماعياً تكلم به جماعة معينة بعد تلقيــه عن المجتمع بانتقاله من جيل سابقٍ إلى جيل لاحقٍ ، وقد مرَّ هذا النظام بــأطوار معينــة متأثراً بنُظُمٍ مختلفةٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ ودينيةٍ واجتماعيةٍ وبيئيةٍ ، ومادة هذه اللغــة هــي (الأصوات) ووظيفة هذه اللغة هي (التعبير) وميدان هذه اللغة هو (المجتمع) وجهــاز هذه اللغة هي (الأعضاء النطقية) هذا من حيث مفهوم اللغة .

أما من حيث تطور هذه اللغة وما يحصل لها ، فهي من المسائل المهمة التي لا تزال تشغل بال الدارسين والباحثين ولا سيما تلك التطورات المرتبطة بــالتغير الــذي يحصــل للمجتمعات ، وبما أن اللغة واحدة من مكونات المجتمع فأن التغيرات التــي تطــرأ علــى المجتمع او البيئة تمس اللغة وتترك أثاراً واضحةً عليها .

ولهذا فقد جاء هذا البحث ليكشف عن تغير البيئات والمجتمعات ومدى تأثيره في اللغة العربية وإنْ كان هذا التأثير لا يشمل كل أجزاء اللغة ومكوناتهــا ولكــن يمــس بعــض اجزائها.

وبعد هذه المقدمة تحدث البحث عن مفهومٍ عامٍ للغة عند العرب وما أهــم المفــردات المرادفة لمفردة (اللغة) ؟ وما هي مكونات اللغة ؟ ثم بعد ذلــك علاقــة اللغــة بالبيئــة والمجتمع ، ثم بعد ذلك مواضع التغير أو التأثر في اللغة التي تتركها البيئة والمجتمع على اللغة ، وقد جاءت في موضعين أو مفصلين مهمين الأول : في دلالة الألفاظ . والثاني في الأصوات .

وأنَّ ما عدا هذين الموضعين فأن اللغة لم تتعرض للتغير ولا للتبدل فهي لا تزال محافظة على ما كانت عليه عند نشأتها في قوانينها وانظمتها وأقيستها ، ولم يكن للبيئة ولا للظروف الاجتماعية أثرٌ يذكر في تغير اللغة الا في هذين الموضعين .

مفهوم اللغة عند العرب

اختلف علماء اللغة من العرب في أصل هذه اللفظة ومصادر اشتقاقاتها أعني (اللغة) فقد ذكر ابن فارس انه يقال : أنها من لَغِي بالأمر اذا لهج به [١] ، في حين ذكر صاحب اللسان أنها من (اللَّغُو) وهو النطق بالأصوات [٢]، وذهب ابن جني أنَّ أصلَّها من حيث التصريف هو (لُغْوَة) في قوله : (أما تصريفها ومعرفة حروفها فأنها (فُعْلَة) من لَغَوتُ أي تكلمتُ، وأصلها لُغْوَةَ ككُرَة ، وقُلَة ، وثُبَة ، كلها لاماتها واوات ؛ لقولهم : كروتُ بالكُرَة ، وقلوتُ بالقُلَة ، حُذفت منها الواو وعوض عنها بتاء في آخرها) [٣] .

ولعل مصدر هذا الاختلاف والاضطراب في تعيين اصلها واشتقاقها هو ان لفظة (اللغة) ليست عربية الأصل وإنما هي على الراجح معرب (logus) اليونانية التي من معانيها (كلمة) أخذها العرب وصاغوا منها فعلاً ومصدراً [٤] .

ومما يؤيد هذا القول أنَّ هذه اللفظة لا وجود لها في بعض اللغات السامية على الاقل فهي ليست في العبرية وإنما يقابلها لفظة (لَشون) التي تعني اللسان وهي ليست في الارامية ايضاً وانما يقابلها لفظة (لِشان) [٥] .

ويبدو أيضا أن لفظة (اللغة) ليست من الألفاظ العربية الموغلة في القدم ، فهي ليست من الألفاظ القرآنية ، وليست من الفاظ الشعر الجاهلي ، غير أنه وردت الفاظ اخرى تشارك هذه اللفظة في جذرها اللغوي وتلتقي معها في الدلالة على النطق مثل : إلغَوا ولاغيهَ ولُغَوي ومُلَغَاة واللغُو [٦] ومن ذلك قوله تعالى " وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه " [٧] وقوله تعالى : " لا يؤاخذكم الله باللغوِ في ايمانكم " وقوله تعالى : " والذين هم عن اللغوِ معرضون " [٩] وقوله تعالى : " والذين لا يشهدون الزور واذا مرُّوا باللغو مروُّا كِراماً " [١٠] وقوله تعالى : " واذا سَمِعوا اللغو أعرضوا عنه " [١١] وقوله تعالى : " يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم " [١٢] وقوله تعالى : " في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية " [١٣] .

وكذلك وردت في بيت شعري جاهلي في قول الشاعر :

باكرتُهم بسباء جَــونِ ذراعٍ

قبل الصباح وقبل لَغو الطائر

وأقدم نص وردت فيه مفردة (اللغة) صريحة بهذه الطريقة هــو الحــديث النبــوي الشريف في قوله (صلى الله عليه وسلم) : " لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه) [١٥] .

اما القرآن الكريم فقد اورد (اللغة) بلفظة (المنطق) في قوله تعــالى : " يــا أيهــا الناس عُلِّمنا منطق الطير " [١٦] أي لغة الطير ، وقد عبر عنها في مواضع اخرى كثيــرة بلفظة (اللسان) منها قوله تعالى " لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لســانُ عربــيُ مبينُ " [١٧] ، وقوله تعالى " وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهــم " [١٨] ، وقوله تعالى " فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُــدّاً "[١٩] وقولــه تعالى : " ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم وألوانكم " [٢٠] .

وقد ورد مجيئ اللسان بمعنى (اللغة) ايضاً في احاديث نبوية كثيرة من ذلــك قولــه (صلى الله عليه وسلم) " فاكتبوها بلسان قريش " وقوله : " طلاق كــل قــوم بلســانهم " وقوله: " السنتهم السنة العرب " وقوله : " ان الله يعلم الالسنة كلها " [٢١] .

وإذا كانت المعاجم العربية لا تورد لهذه اللفظة سوى معناها الواسع المرادف للســان فأن تتبع النصوص العربية الأخرى يُشعر بأن العرب استعملوها قديماً بمعنى آخر ضــيق هو (اللهجة) فقد رُوِيَ عن ابن عباس انه قال : (نزل القرآن على سبعة أحرف أو قــال سبع لغات) [٢٢] وعن أبي عبيدة أنه قال : " جاءت لغات لأهــل الــيمن فــي القــرآن معروفة " [٢٣] .

وهناك من جمع بين المعنيين – الواسع والضيق في سياق واحد ، فأبن عباس مــثلاً نجده يجمع في كتابه (اللغات في القرآن) بين ما يدعوه (لغة) قريش وهــذيل وكنانــة والاوس والخزرج وخشعم وقيس وتميم واضرابها من جهة و (لغــة) الفــرس والنــبط والاحباش والسريان والروم من جهة اخرى . [٢٤] .

ولا بد أنَّ نعرف ان استعمال العرب للفظة (اللسان) بمعنى (اللغة) هو اســتعمال مجازي إنْ صح التعبير . لأن لفظة (اللسان) في الأصل موضوعة للدلالة علــى ذلــك العضو المعروف الذي هو ألةُ النطق والكلام .

وأستعمال أعضاء النطق مثل اللسان والشفة للدلالة على (اللغة) أمرٌ شائع في كثير من اللغات الأخرى كما عرفنا ، ففي الانكليزية مثلاً (Tangue) ومعناها اللسان مرادفة للفظة (Langueje) التي معناها (اللغة) ، وفي العبرية استعملت (الشفة) بمعنى (اللغة) وهو استعمال مجازي كما قلنا [٢٥] . في العربية .

ويبدو أن استعمال (اللسان) للدلالة على (اللغة) في العربية ظل دارجاً على ألسنة علمائِها ردحاً من الزمن حتى أنَّ ابن منظور سمى معجه (لسان العرب) وهو بلا ريب يعني به (لغة العرب) .

وقد اشُتقتْ من لفظة (اللسان) في العصر الحديث مصطلحات جديدة وهي في الحقيقة ليست ببعيدة عن جوهر اللغة ومضمونها مثل : الألسنية واللسانيات .

بعد ذلك التأصيل والاشتقاق والمرادفات لمفردة (اللغة) اختلف العلماء مرة أخرى في وضع مفهوم او تعريف دقيق (للغة) ، فأبن الحاجب مثلاً : يعرِّفها على انها : (كل لفظٍ وضع لمعنى) [٢٦] ولا يخفى على أهل اللغة وعلمائها أنَّ اعتبار اللغة مجرد الفاظ موضوعة لمعاني هو تجريد للغة عن طبيعتها التركيبية ، ولعل هذا التعريف هو الذي حرمنا من معرفة الكثير من أسرار العبارة العربية في الدراسات اللغوية القديمة . [٢٧]

ويُعدُّ أولَ من وضع (للغة) تعريفاً دقيقاً أخذت به جمهرة المعاجم العربية حين تعرض لهذه اللفظة هو العالم الكبير ابن حني ت ٣٩٢هـ ، حيث عرَّفها على انها: (أصواتاً يعبرُ بها كل قومٍ عن أغراضهم) [٢٨] وهذا التعريف ينطبق على كل اللغات وليس العربية فحسب .

ويعد تعريف ابن جني (للغة) هو التعريف المعتمد والمُعوَّل عليه عند علماء العربية وغيرهم ، لانه تعريف جامع دلَّ على طبيعة اللغة واهميتها وميزها عن غيرها كالاشارة والرمز والخط التي استعملها الانسان للدلالة على اغراضه المختلفة . [٢٩]

فقد جاء تعريف ابن جني للغة بالشمول والمناعة ، فمن حيث الطبيعة فهي اصوات ومن حيث وظيفتها فهي تعبر وبالتعبير يتواصل ابناؤها ويتفاهمون بها ، ومن حيث كونها وسيلة افصاح فهي كذلك ولها اغراض متعددة كالتنبيه والغناء والشعر والحوارات المختلفة والمحاججات ، والترجمة الخ . [٣٠] .

ولفظ (اللغة) في العربية انما يدل على لغة العرب الموحدة ، وقد اصبح لها مدلول اخر في عصر التدوين فصارت تطلق على لغات العرب الفرعية التي تختلف عن هذه اللغة الموحدة شيئاً ما ، ومن هذا صرنا نجد في كتب اللغة والنحو لغات كثير منسوبة الى قبائل معينة مثل لغة قريش ولغة الحجاز ولغة نجد ولغة تميم ولغة هذيل ولغة اهل الكوفة ولغة اهل البصرة وهكذا .

ويعد اول من استعمل هذا المصطلح هو أبو عمرو بن العلاء ت ١٥٤هـ (قال أبن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عما وَضَعْتَ مما سميتَهُ عربية أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقلت كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر وأسمِّي ما خالفني لغات) . [٣١]

ثم تتابع بعد ذلك في كتب اللغة والنحو هذا الاصطلاح فأبن خالويه يقول في شرح الفصيح : أخبرنا أبن دريد عن أبي حاتم الاصمعي قال : (أختلف رجلان في الصقر فقال احدهما بالسين وقال الاخر بالصاد ، فتحاكما الى أعرابي ثالث ، فقال : أمَّا انا فأقول الزقر بالزاي ، قال : ابن خالويه فدلَّ ذلك على أنها ثلاث لغات " [٣٢] .

وذكر ابن فارس أَنَّ رفع (هذان) بالإلف بعد (أنَّ) في مثل قوله تعالى : " إنَّ هذان لساحران " [٣٣] هي لغة بني الحارث بن كعب . [٣٤] .

ثم حلت في العصر الحديث محل اللغة الفرعية وليست الموحدة لفظة سميت فيما بعد (باللهجة) فصرنا نقرأها في اغلب كتب اللغة الحديثة مثل لهجة تميم ولهجة هذيل ولهجة الحجاز الخ ...

وما نطلق عليه ، اليوم لفظة (اللهجة) انما يدخل ضمن تعريف (اللغة) لأنَّ اللهجة مهما اختلفت عن اللغة الام في بعض مفرداتها وتراكيبها ، فهي لا تعدو أن تكون الفاظاً بسيطة ومركبة . واصل هذه الالفاظ إنمَّا هي أصواتُ ضُمَّ بعضها إلى بعض ليعبر بها الانسان عن اغراضه، وهذا هو مفهوم (اللغة) الذي وضعه ابن جني في تعريف اللغة.[٣٥]

<u>علاقة اللغة بالبيئة والمجتمع :-</u>

من المعروف أنَّ اغلب الشعوب التي ترجع في اصلها الى السامية كانت تتكلم في الأصل لغة واحدة هي اللغة السامية الأم ، غير ان اختلاف البيئات والمجتمعات أدَّى

بالتالي الى اختلاف في لهجاتها مالبث ان اتسع مع الزمن حتى جعل من تلك اللهجات لغات مختلفة .

ويقسم علماء اللغات السامية هذه اللغات على قسمين [٣٦] اللغات السامية الشمالية وتشمل اللغة الأكادية أو الأشورية البابلية ، واللغة الكنعانية ، والعبرية والفينيقية والُآرامية، واللغات السامية الجنوبية وتشمل : العربية واليمنية القديمة واللهجات الحبشية . وعلى الرغم مما بين هذه اللغات من اختلاف فرضته ظروف البيئة والمجتمع الذي تعيش فيه كل لهجة ، فقد بقي هناك إِرث مشترك يقوم على تشابه في كثير من الالفاظ والقواعد.

وليس هناك دليل او علم أكيد على وجه التحقيق متى استقر العرب في جزيرتهم لاول مرة وكل ما وصل إلينا أنهم سكنوا هذه الجزيرة منذ أقدم العصور ، وأنَّ ما وصل الينا منهم لا يكاد يتجاوز ٢٠٠ سنة قبل الاسلام وهي المرحلة التي تسمى بالجاهلية وهي تشير إلى ان العرب في تلك الحقبة كانت على جانب من التطور والرقي . [٣٧]

من هذا نستطيع أنْ نقول : إنَّ العربية استمدت أصولها الأولى من اللغة السامية الام ثم أخذت تتطور متباعدة عنها مع الزمن ومع اختلاف البيئات والمجتمعات التي استقرت فيها تلك اللغة بحيث استطاعت ان تُكّون لها قواعد وأصول تمكنها من عدم التاثر باللغات المحيطة بها بالقياس الى نظيراتها الاخرى لدى الشعوب السامية الاخرى التي هجرت الجزيرة وتأثرت بشكل مباشر بلغات الشعوب المختلفة التي حلت بين ظهرانيها .

وقد كان لطبيعة الجزيرة العربية المترامية الأطراف شأن كبير في صعوبة الاتصال بين أجزائها ما جعل سكانِها ينقسمون على قبائل أخذت تظهر بينها مع الزمن لهجات مختلفة بَعُدَ التباين بينها أو قرُبَ بالنسبة لاتصال أصحابها بعضهم ببعض من جهة، ومدى تأثرهم بالأقوام المجاور لهم من جهة أخرى .

لذلك فأن هذا الامتداد الواسع لصحاري أواسط آسيا قد ألقي بضلاله على تلك اللهجات ما جعل الاختلاف بين لهجاتها الشمالية والجنوبية اشد منه بين اللهجات الأخرى، وقد تناول هذا الاختلاف كثيراً من المظاهر الصوتية واللغوية والنحوية بحيث اصبح في الجزيرة العربية قبل الإسلام لغتان متميزتان : الأولى شمالية تمثلت فيما بعد بلغة القرآن الكريم وما نُسِبَ للجاهلية من نصوص أدبية ، والثانية جنوبية تمثلت في لغة سبأ وحمير ، وقد أشارت كتب اللغة والأدب إلى ما كان بين هاتين اللغتين من مغايرة فرضتها عليهم

ظروف البيئة والمجتمع التي تعيش فيه هاتان اللغتان ، فقد روت لنا كتب اللغة أنَّ ابا عمرو بن العلاء قال: (ما لسانُ حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا)[٣٨]. والروايات في ذلك كثيرة لا مجال لذكرها في هذا البحث .

والذي يهمنا في هذا البحث ما فرضته البيئة والمجتمع من اثر وتغير على هذه اللغة بحيث نستطيع من خلال استقرائنا لتاريخ اللغة الطويل التمييز بين اللغة في العصور الجاهلية واللغة فيما بعد نزول القرآن الى يومنا هذا ، ومن خلال هذا الاستقراء تبين لدى الباحث أنَّ مواضع التغير التي احدثتها ظروف البيئة والمجتمع كانت تتركز في اتجاهين ، الاول : التغير في دلالة الالفاظ عبر قرون عدة ومجتمعات شتى ، والثاني : التغير في بعض اصوات العربية على ان هذا التغير لم يكن بالشيئ الكثير بحيث يكون هناك تغير كلي أدى الى انقراض الاصوات . [٣٩]

مواضع التغير أو التأثير في اللغة

أولا : التغير في دلالة الألفاظ :-

لم تذكر لنا المصادر من كتب اللغة القديمة والحديثة ان نسبة التغير في دلالة الألفاظ على مر العصور كانت كبيرة بالنسبة التي يمكن ملاحظتها . إنما كانت هذه التطورات في دلالة الألفاظ بنسبة قليلة وضئيلة امتدت إلى بضعة ألفاظ من حيث تطور دلالتها وخروجها إلى معان جديدة أو قريبة في الأصل .

وقد يكون هذا التغير الدلالي في لغة أكثر منه في لغة أخرى ، وذلك لحيوية تلك اللغة ومدى تقبلها او رفضها لما يطرأ عليها من تغيرات في اغلبها تغيرات بيئية واجتماعية او تغيرات في ذات اللغة . كأن يتغير المدلول وهيئاته مع بقاء الصلة بينه وبين المدلول الاول في أصل الوضع .

فلفظة (السيارة) في اصل الوضع كانت تدل على القوم السائرين، وفي معجمات اللغة (رجل سيار ، وقوم سيارة ، وساروا من بلد الى بلد ...)[٤٠] وهي تعني القافلة من الناس وامتعتهم ومنه قوله تعالى : " يلتقطه بعض السيارة)[٤١] . اما في العصر الحديث فقد خرج هذا اللفظ الى مدلول جديد بعد أن وُجِدتْ الآلة (السيارة). ودلالة الفعل (سار) هي الرابطة او الصلة بين هذه الآلة الحديثة واطلاق لفظ السيارة على الجماعة من الناس السائرين ، ووجه الشبه بين القوم السائرين والآلة (السيارة) هو (السير) .

ولعل من ابرز العوامل التي أدت الى تغير او تطور الدلالة هي تلك الاستعمالات المجازي والاستعارية لمفردات اللغة ، فالمعنى الاصلي قد يخرج الى معنى مستعار جديد او فكرة او صورة ادبية ، يدخل اللفظ في تكوينها ويتطلب منه استخدامه في غير ما وضع له من معنى . (٤٢)

ومن الملاحظ ان هذا النوع من الالفاظ المتغير الدلالة يظهر واضحاً ويستطيع الباحث ان يدركه بيسر ، وان كان قليل الاثر في اللغات البشرية بصورة عامة .

والألفاظ التي انتقلت من دلالتها اللغوية الخالصة الى دلالة جديدة اصطلاحية على طريق التوسع او الاستعارة والمجاز . لوجود قرائن تربط بين مدلول اللفظ في أصل وضعه ، ومدلوله في ما آل اليه ، يمكن معرفتها والكشف عنها ، لأن تاريخ اللغة بين ماضيها وحاضرها مرتبط ببعضه ، وتراث اللغة كائن بين يدي الدارسين ييسر لهم المقارنة للتمييز بين الحقيقي والمجازي والأصلي والدخيل . (٤٣)

وقد زاد مجيئ الاسلام دخول الفاظ جديدة للتشريع الاسلامي أدىَّ الى اكتساب كثير من الالفاظ معاني جديدة زادت من رصيد اللغة آن ذاك ، ومن امثال هذه الالفاظ الجديدة الاسلامية المعنى (الصلاة والزكاة والصوم والحديث والنافلة والايمان والعقيدة والدعوة والصدقة والسنة والفرض والجهاد والاسلام والحج والكافر والمنافق والفاسق والسجود قال ابن فارس (إنَّ العرب انما عرفت المؤمن من الامان والايمان ، وهو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سُمِّي المؤمن بالاطلاق مؤمناً ، وكذلك الاسلام والمسلم ، انما عرفت منه إسلام الشيئ . ثم جاء في الشرع من اوصافه ما جاء ، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر ، فاما المنافق فأسمُ جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهره . وكان الأصل من نافقاء اليربوع ولم يعرفوا في الفُسق إلاَّ قولهم : فَسَقَتْ الرُّطبة . اذا خرجت من قشرتها . وجاء في الشرع بأن الفسق الأفحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى .

ومما جاء في الشرع : الصلاة ، واصله في لغتهم الدعاء ، وقد كانوا يعرفون الركوع والسجود ، وان لم يكن على هذه الهيئة .... قال ابو عمرو : أسْجَدَ الرجل : طأطأ رأسه وانحنى .... .

وكذلك الصيام أصله عندهم الأمساك .... ثم زادت الشريعة النّية ، وحظرت الاكل والمباشرة وغير ذلك من شرائع الصوم .

وكذلك الحج . لم يكن فيه عندهم غير القصد ، وسبر الجراح ... ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره .

وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية النَّماء ، وزاد الشرع مازاده فيها....

وعلى هذا سائر ابواب الفقه فالوجه في هذا اذا سئل الانسان عنه انه يقول فيه اسمان: لغوي وشرعي ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ، ثم جاء الاسلام به) (٤٤)

ولم يكن النقل او التغير من المعنى الوضعي الى المعنى المجازي ليقتصر على الفاظ الشرع وانما تعدى ذلك الى كثير من الالفاظ الاخرى التي تتصل بسائر العلوم ، كالرفع والنصب والخفض في النحو والطويل والمديد والسبب في العروض ، والاستعارة والمجاز والألتفات في البلاغة . كذلك لم يكن يقتصر على الالفاظ دون العبارات ، فقد جاء في المزهر أنَّ أبن دريد افرد في (المجتبى) باباً لِمَا سُمِعَ من النبي (صلى الله عليه وسلم) ممن لم يُسمع من غيره قبله . (٤٥)

وما ورد في هذا الباب قوله (صلى الله عليه وسلم) : " مات حتف انفه " و(لا ينتطح فيها عنزان) و(الآن حَمِيَ الوطيس) و(لايلدغ المؤمن من جحر مرتين) و (إيَّاكم وخضراء الّمَن) (٤٦) .

وقد وجد المُشرِّع اتساعاً في هذه اللغة وانصياعاً ميسوراً في تطور الدلالات واستخدام الالفاظ في صيغ جديدة . بحيث انتقلت بعض الألفاظ من دلالتها المادية إلى دلالة معنوية ، ومن دلالة حسية إلى دلالة ذهنية مجردة مع بقاء العلاقة بين الموضعين ، تبعاً للتطور الذي حصل للعقل العربي وانفتاحه على حياة جديدة لم يتعود عليها في صحرائه القاحلة .

ولهذا فان كثيراً من الألفاظ أو المفردات اكتسبت دلالة جديدة بعد أن كانت تستعمل بدلالة خاصة بها ومن أمثلة ذلك لفظة (بهيم) وهي تأتي عادة صفة للون – فيقال : (لون بهيم) وهو اللون الذي لا يخالطه لون أخر ولذلك قيل (ليل بهيم) أي ، لاشية فيه من لون أخر ، ولكن بمرور الزمن وعبر التاريخ الطويل اكتسبت هذه اللفظة دلالة جديدة

وأصبحت تطلق على اللون الأسود خاصة دون غيره من الألوان . وسبب ذلك أنها استُخدِمت صفة ملازمة لليل الأسود . (٤٧) .

والكلام عن فقير الدلالات كلام طويل ، ومتعدد الجوانب يتصل بعضه بقضايا نفسية وبعضه بعلل اجتماعية وبعضه الأخر بتطورات في حياة الأمة في تاريخها الطويل .

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى توليد معانٍ جديدة للألفاظ هي الاستعارة بكل طرقها، والمجاز المرسل ، ومن أمثلة ذلك قولهم : (البشرة) لجلد الإنسان بمرور الزمن على هذه اللفظة انتقل مدلولها إلى معنى جديد وهو النبات في قولهم : بشرة الأرض . أي ثباتها(٤٨) ، والعلاقة بين المعنيين هي علاقة المشابهة فهو من باب الاستعارة ، أما من أمثلة المجاز المرسل قولهم : تساق الرجل إلى المرأة مهرها . ويعنون بذلك (المهر) الحيوان المعروف وقد كان يساق إلى المرأة . ويعنون بذلك (المهر) الحيوان المعروف وقد كان يساق إلى المرأة عند الزواج ، غير إن العرق الاجتماعي والتقاليد العربية تغيرت بتغير الحياة . وسلوك المجتمع وحضاراته ، فأصبح (المهر) نقوداً تعطى للمرأة . (٤٩)

وعلى هذا يجب ان نعرف ان هذه الالفاظ التي تغيرت دلالتها لايمكن ان تكون وليدة عصر من العصور ، ولا مدة زمنية قصيرة ، بل انها واكبت تحولات اجتماعية وبيئية في غضون تاريخ طويل ، أو ظروف حضارية متعاقبة مرت بها الامة فتركت اثارها على اللغة ، وهذا لا غرابة فيه اذا ما علمنا ان اللغة هي الوعاء الذي يحفظ كل ما تخلفه الامة من تراث فكري وثقافي وحضاري . (٥٠) .

غير ان هذه التغيرات التي احتفظ تاريخ اللغة بصور منها في غضون حياة العرب كانت تشكل جانباً من لهجات بعض القبائل العربية التي كانت منتشرة في ارجاء الاراضي العربية ، فالكشكشة ، والكسكسة ، والعنعنة ، والفحفحة ، وغيرها من الظواهر اللغوية والتي لا تمثل البناء الرئيسي لهذه اللغة ، ولا اصواتها التي استقرت عليها في اللسان الفصيح الذي انتقل الينا في الشعر العربي الجاهلي ولغة القرآن الكريم وحديث الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وكلام العرب الفصحاء وكلام الصحابة الاجلاء على مدى التاريخ الطويل ، وهذا المد المتلاطم من النصوص الفصيحة جعل الَعالِم والجاهل يدركان حقاً اين تكمن الفصاحة واين يكون اللحن . (٥١)

ثانياً : التغير في بعض الأصوات

لا تخرج (اللغة) - أي لغة - عن كونها اصواتاً او حروفاً ، واختلاف اللغات فيما بينها يرجع الى طريقة تأليف (الكلمات) من هذه الاصوات ، ثم اختلاف الاساليب والتراكيب لهذه الكلمات عند ضم بعضها الى بعض . (٥٢)

وعلى هذا نعرف ان الاختلاف بين اللغات غير قائم على اختلاف المادة الصوتية التي تتالف منها والتي تُكوِّن عند ضمها الى بعضها لغات ، وندرك ذلك اذا علمنا ان اغلب الاصوات اللغوية هي مشتركة في جميع اللغات العالمية ، وان الاختلاف في الاصوات بين اللغات قليل اذا ما قيس بالتشابه ، وخير تمثيل المقارنة بين اصوات العربية والانكليزية ، ففي اغلب الاصوات مشتركة والاختلاف يكون فقط في : الخاءوالحاء والقاف والعين فهي غير موجودة في الانكليزية ، ويقابله (p.v.ch) في الانكليزية وهي غير موجودة في العربية . ولكن ربما نجدها في اللهجات العامية العربية أما الفصحى فلا .

وهذا الاختلاف في نطق الأصوات على الأغلب وقع جزافاً ، وليس له علاقة بطبيعة الجهاز النطقي عند الانسان ، والدليل على ذلك ان كل من الناطقين بالعربية او الانكليزية مثلاً يستطيع من خلال التدريب والممارسة ان يلفظ الاصوات غير المستعملة في لغته لأن أجزاء النطق عند جميع الخلق واحدة . (٥٣)

وقد ادرك ذلك الجاحظ بقوله : (انا نجد الحاكية من الناس يحكي الفاظ سكان (اليمن) مع مخارج كلامهم ، لا يغادر من ذلك شيئاً كذلك تكون حكايته للخرساني والاهوازي والسندي والاحباشي وغير ذلك ، نعم ، حتى تجده أطبع منهم) ثم قال : (وانما تهيأ وامكن الحاكية لجميع مخارج الامم لما أُعطي الإنسان من الاستطاعة والتمكين ، وحين فضله على جميع الحيوانات بالمنطق والعقل والاستطاعة فبطول استعمال التكلف زلت جوارحه لذلك) (٥٤) .

وإذا كانت هذه الأصوات التي تُكوِّن اللغة العربية التي نقلت ألينا عن طريق كتب اللغة تدل على شيئ معين فأنها تدل على قدرة اللسان العربي على النطق بجمهرة الاصوات الانسانية في جميع اللغات ، ولعل قول فندريس : (ان النظام الصوتي بعيد كل البعد من ان يكون ثابتاً طوال تطور لغة من اللغات) (٥٥) صحيح الى حد ما ، ذلك ان

هذه الاصوات التي تركتها العربية خلال حياتها كانت تمثل طوراً من اطوار تغير الاصوات وتبدلها حتى استقرت اخيراً على هذه الاصوات التسعة والعشرين في اللسان الفصيح ، ومع ذلك فأن هذا المتروك من اصوات العربية الفصيحة كان بلا شك يمثل لهجات عديدة عند اللغويين مذمومة خارجة عن العربية الفصيحة ، فلم تكن عامة في قوانين اصوات العربية ونظامها .

ومن خلال ما قدمناه يمكن ان نعرف ان أصوات العربية الفصحى حافظت على اصالتها وثبت على ما كانت عليه عند العرب قبل الاسلام وبعده ، مع ان المجتمع العربي المتحول من مجتمع القبيلة والقيم والجاهلية الى قيم جديدة ذات مُثل عُليا أكدها وشرعها الاسلام شملت كل نواحي الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . (٥٦)

واذا كان هناك تغير في النظام الصوتي فهو مقصور على افراد من الجماعة الاسلامية ، في ظروف خاصة كما نقل ذلك عن ابي الاسود الدولي ت ٦٦هـ حين سَمِعَ أحدهم وهو لا يفرق بين (الضاد والظاء) فقوَّم لسانه ، وعزى أبو الأسود الدؤلي سبب وجود هذه التبدلات الصوتية إلى غير العرب ممن دخلوا الاسلام حديثاً فقال : (إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وفسدت السنتها) (٥٧) .

وعند تتبع أصوات العربية على مرّ العصور ، نلاحظ أنَّ الصوت الذي حصل فيه تغير ملموس هو صوت (الضاد) والسبب في ذلك هو الاختلاط الاجتماعي بين العرب وغيرهم ممن دخل من الامم الاسلام والذين لا يستطيعون نطق حرف (الضاد) بصورة صحيحة .

لذلك التفت العلماء القدامى الى هذا التغير الملحوظ في هذا الصوت ، فألَّفَ فيه العلماء كتباً ليميزوا فيها بين الظاء والضاد . (٥٨)

وفي العصر الحديث وتحديداً في النصف الاول من القرن العشرين ظهرت محاولات عدة لحذف حرف الضاد او تغييره بحجة أن حرف (الضاد) حرفاً ليس مختصاً بالعربي فقط بل هو مستخدم عند الانكليز والتركمان الذين كانوا يقطنون مصر . ومن ابرز هؤلاء على مستوى العراق هو مصطفى الشيبي حين نشر مقالاً في جريدة العراق البغدادية بعنوان (العربية أهي لغة الضاد أم لغة الظاء ؟) واقترح الشيبي ان يحل حرف الظاء محل الضاد ليحمل اسم العرب وتبعه في ذلك محمد شيت الحياوي . (٥٩)

ولتأكيد أئمة العربية الأوائل على حروف خمسة من بين حروف العربية وهي (الظاء والضاد والسين والصاد والذال) دليل على ان هذه الحروف كانت عرضة للتغيرات على السنة المتكلمين بها على مرّ العصور ، والمتأمل في هذه الحروف يجدها حقاً من الحروف التي يصعب نطقها او لفظها على الوجه الصحيح لغير العربي .

وقد نقل لنا الزمخشري ت ٥٣٨ هـ في كتابه اساس البلاغة : أنَّ اهلَ بغداد يقولون (الذقن) (الدقن) بالدال كما ينطقها المصريون اليوم . (٦٠)

ولقرب مخارج هذه الحروف من بعضها تجد الخلط في نطقها اكثر من غيرها من الحروف فالذال والزاي والسين والصاد غالباً ما يحصل الخلط بينها .

ويمكن القول بأنَّ هذه التغيرات التي حصلت للاصوات العربية عبر القرون الطويلة من تاريخ العربية هي مما وقع بأثر السنة غير عربية في اللسان العربي ، وهي مقصورة على اللسان العامي بعيدة عن الفصيح ، اذا ما شاء ان ينطق الحرف كما ورثه عن اجداده ولو أراد ان يتكلم اللغة الفصحى ، فأن نطقه بهذه الحروف وغيرها لا يختلف عن الاعرابي الفصيح في الجاهلية والاسلام . (٦١)

ومن الجميل بالذكر ان يرجع الدكتور صبحي الصالح سبب ثبات اصوات العربية في لسان المتكلمين بها في مختلف العصور الى القرآن الكريم فيقول: (القرآن الكريم بإيجاب ترتيله على نحو خاص ، كان السبب الجوهري في احتفاظ لغتنا بأصواتها ثابتة ، وبأنسابها صريحة وبحروفها واضحة) (٦٢) .

في حين ان المتتبع لتاريخ اللغات الأخرى يلاحظ ان التغيرات الصوتية في اللغات غير العربية أمرً طبيعي وهو شائع ومعروف . (٦٣)

الخـاتمـة

من خلال هذا البحث البسيط عن تغير البيئات والمجتمعات واثره في اللغة العربية يمكننا ان نعرف ونستخلص انه لا علاقة بين التغيرات البيئية والاجتماعية التي تطرأ على المجتمعات والبناء اللغوي لتلك المجتمعات ، اذ ان اللغة العربية الحية فيها مميزات تجعلها قادرة في ذاتها على الاتساع والنحت والاشتقاق والتولد في مفرداتها . واذا كان ثمة تغيير يحصل لها أي للغة بتغير ظروف المجتمع وبيئته واتجاهاته الفكرية والثقافية والسياسية فموقعه في استحداث مفردات او الاتساع في الدلالة او الخروج الى المجاز والاصطلاح ، وذلك كله كما قلنا ميدانه اللفظ لا التركيب والنظام .

واذا كان ثمة شيئ اخر يمكن ان يتغير بتغير ظروف المجتمع وان كان قليلاً في حياة الفرد فبعض أصواتها . كما بينا في ثنايا البحث وهو مقتصر على حرف الضاد والظاء والخلط بينها وكذلك الحروف القريبة فيما بينها من حيث المخرج ، وان كان ذلك واضح في غير العربية فان اصوات العربية تكاد تكون واحدة على مرّ العصور الطويلة التي عاشتها هذه اللغة . ولعل مردَّ ذلك الى احتفاظ العربية باصولها الاولى في نصوص ووثائق أمتدت من عهد فحولة اللغة في الجاهلية متمثلة في الشعر والخطب والسجع والامثال . الى عهد اتساعها وانتشارها وسيطرتها على اكثر اللغات تبعاً لانتشار المجتمع واتساعه في العصور الاسلامية متمثلة بالقرآن والحديث والشعر والخطبة والامثال والمؤلفات العامة والمعجمات على اختلاف مدارسها ومناهجها وموضوعاتها .

اذن فالعربية التي عرفها العالم ببنائها الشامخ وبأساليبها الفصيحة المتبينة وباصواتها الثابتة الرصينة وبأنسابها الصريحة لم تزل راسخة أصيلة . يتحدث بها الفصيح اليوم . كما كان يتحدث الفصيح الجاهلي أو الإسلامي .

وان ما حصل من تغير لم يفقدها شيئ من رصانتها ولا من متانتها بل زادها قوة الى قوتها ومتانة الى متانتها ، ولعل ذلك بسبب القرآن الكريم الذي نزل بهذه اللغة العظيمة ، والذي تعهَّد الله بحفظه وحفظ لغته كما قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز : (إنا أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

قائمة الهوامش والمصادر

- القرآن الكريم

١- معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٥٥/٥ ، دار الكتب العربية . القاهرة (١٣٦٦-١٣٧١هـ) .

٢- ينظر : لسان العرب لابن منظور مادة (لغا) دار صادر ، بيروت (١٩٥٥-١٩٥٦) .

٣- الخصائص لابن جني ٣٣/١، دار الكتب المصرية ، القـاهرة (١٩٥٢-١٩٥٦) تحقيق محمد علي النجار .

٤- ينظر : في أصول اللغة والنحو ص ١١ ، د.فؤاد حنا ترزي ، مطبعة دار الكتب – بيروت ١٩٦٩ .

٥- ينظر : دراسات في اللغة والنحو ص ١١٠ د. عدنان محمد سلمان ، دار الحكمة ١٩٩١، بغداد .

٦- ينظر : دراسات في اللغة والنحو ص ١١٢ .

٧- سورة فصلت آية ٢٦ .

٨- سورة البقرة آية ٢٢٥.

٩- سورة المؤمنون آية ٣ .

١٠- سورة الفرقان آية ٧٢ .

١١- سورة القصص آية ٥٥ .

١٢- سورة الطور آية ٢٣ .

١٣- سورة الغاشية آية ١١ .

١٤- لسان العرب مادة (لغا)

١٥- المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي الشريف مادة (لغا) ١٣٠/٦

١٦- سورة النحل آية ١٦.

١٧- سورة النحل آية ١٠٣ .

١٨- سورة ابراهيم آية ٤ .

١٩- سورة مريم آية ٩٧ .

٢٠- سورة الروم آية ٢٢ .

٢١- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف مادة (لسن) ٦/ ١١٦ -١١٧.

٢٢- الصاحبي في فقه اللغة ٥٧ .

٢٣- المصدر نفسه ٥٨ .

٢٤- ينظر : اللغات في القرآن المسند لابن عباس ، أبو محمد إسماعيل بن عمرو الحداد ، حققه صلاح الدين المنجد ط١ مطبعة الرسالة – القاهرة ، د.ت.

٢٥- ينظر دراسات في اللغة والنحو ١١٠ .

٢٦-ينظر دراسات في اللغة والنحو ١٦ .

٢٧- المصدر نفسه .

٢٨ - الخصائص ٣٣/١

٢٩- البيان والتبيين للجاحظ ٧٦/١ . تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الجاحظ ، ط٣ ، القاهرة ١٩٦٨ .

٣٠- ينظر : مباحث في علم اللغة واللسانيات ص ٢١٢ . رشيد العبيدي . دار الشؤون الثقافية العامة ط ١ ، بغداد ٢٠٠٢ .

٣١- طبقات النحويين واللغويين ص ٣٩ ، ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، مطبعة سامي الخانجي القاهرة ص ١٩٥٤ .

٣٢- المزهر في علوم اللغة وانواعها ٤٧٥/١ . تحقيق وشرح محمد جار المولى ومحمد: ابو الفضل ابراهيم وعلي البجاوي، دار احياء الكتب العربية القاهرة د. ت.

٣٣- سورة طه أية ٦٣ .

٣٤- الصاحبي في فقه اللغة ٤٩ .

٣٥- ينظر : دراسات في اللغة والنحو ١١٠ .

٣٦- تاريخ اللغات السامية ص ٢٠ ، ولفنسون ط١ ، مطبعة الاعتماد القاهرة .١٩٢٩

٣٧- ينظر في اصول اللغة والنحو ١٨ .

٣٨- طبقات الشعراء لابن سلام ٦٨ .

٣٩- ينظر : مباحث في علم اللغة واللسانيات ٢٩٤ .

٤٠ – اساس البلاغة للزمخشري ت (٥٣٨ هـ) طبعة القاهرة. الشعب ١٣١٤ هـ .

٤١- سورة يوسف آية ١٠ .

٤٢- مباحث في علم اللغة واللسانيات ٢٨٦ .

٤٣- المصدر نفسه ٢٨٨ .

٤٤- الصاحبي في فقه اللغة ٤٤ ، وينظر : المزهر ١ / ١٩٥ ، والتطور اللغوي التاريخي ص ٥٠ د. ابراهيم السامرائي ، الطبعة ٢ ، ١٤٠١ هـ بيروت دار الأندلس.

٤٥ - ينظر : المزهر ١ / ٣٠٢

٤٦- المصدر نفسه

٤٧- الأساس للزمخشري ٦٤٦ .

٤٨- المنجد ٣٩ .

٤٩- ينظر : مباحث في علم اللغة واللسانيات ٢٨٩ .

٥٠- لحن العامة ابو بكر الزبيدي ٤٢ طبعة القاهرة

٥١- ينظر : مباحث في علم اللغة واللسانيات ٢٩٤ .

٥٢- ينظر : دراسات في اللغة والنحو ١١٠ .

٥٣-المصدر نفسه .

٥٤-كتاب الحيوان للجاحظ ٩٦/١ ، تحقيق عبد السلام هارون د.ت .

٥٥-اللغة فندريس ،٦٤ ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، محمد القصاص . القاهرة ١٩٨٢.

٥٦-ينظر : مباحث في علم اللغة واللسانيات ٢٩٤ .

٥٧- معجم الادباء لياقوت الحموي ت ٦٢٦ هـ طبعة مرجليون مصر . ٢٨٠/٤

٥٨-فهرست أبي بكر بن خير ت ٥٧٥ هـ طبعة القاهرة ٣٦٣ .

٥٩- ينظر من مشكلات اللغة العربية في العراق في النصف الثاني من القرن العشرين، رسالة ماجستير غير منشورة . علي جاسم سليمان كلية التربية / جامعة بغداد

٦٠- ينظر دراسات في فقه اللغة صبحي الصالح ص ٣٨٦ ، دار العلم للملايـــين – بيروت ط ١٠ ، ١٩٨٣ ، وفقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبـــارك ص٣٨ ، بيروت ١٩٧٥ .

٦١-ينظر : دراسات في فقه اللغة ٣٨٦ .

٦٢- المصدر نفسه .

٦٣- المصدر نفسه ٢٨٧ .